النَّصِيحَة

لِأَهْلِ الحَدِيثِ وَالأَثَرِ

تَأْلِيفُ

الْإِمَامِ الزَّاهِدِ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْوَاسِطِيِّ الدِّمَشْقِيِّ

الْمَعْرُوفِ بِابْنِ شَيْخِ الحَزَامِيِّينَ

(٦٥٧ _ ٧١١هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ مُجَلّي عظائـمِ الأُمـور والفاتحِ بالنُّـور الأعظَمِ مَغالِقَ الصُّدُورِ، المُجْتَبي مَنْ يشاءُ من عِباده إلى القُرْبِ والحُبُورِ، وأشهد أن لا إِلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريك له القائم على كلِّ نَفْس بما كَسَبَتْ وهو عليـمٌ بذاتِ الصُّدُورِ، وأشهد أن محمداً ﷺ عَبْدُه ورسولهُ، الدَّاعي إلى حقائق المحبَّة والتوحيد لمن استجاب، وبَذَل من نفسه الميسور، وامتثَلَ الأَوامِرَ مُخْلِصاً وراضياً بالحُكْمِ مِنَ المَقْدورِ، صلواتُ الله عليه وعلى آلـه وسلامُه ما ضَـوَّأَ الصَّباحُ حَنادِسَ الدَّيْجـور[1]، وتَشَقَّقَتْ بالماء جلاميدُ الصُّخور، وتلاطَمَتْ أمواجُ البحور، على مَمَر الزمان والدُّهور، صَلاةً لا انقضاء لها إِلى يَوْمِ النشور، وفي أيام الآخرة التي يَفُوزُ فيها بمجاورة الرَّبِّ الغفور، المُوْفِي في الدُّنيـا بحُرْمَـةِ الحيـاءِ والحُضور.

وبعـد:

فإنّي أُهْدِي نَصِيْحَتِي هـذه، إلى إخواني في الله، أَهْلِ الحديثِ

---

(١) أي: شدة الظلام.

والأَثَرِ، الذين أقامَهم الله تعالى رحمةً على الأُمَّةِ، لِحفْظِ أُصول دينها، من سُنَّة رسول الله ﷺ، وآثـارِ الصَّحابة والتَّابعيـن رضـي الله عنهـم أجمعين، وهم أهل النَّضَّارَةِ ـ نضَّر اللهُ وجوههم ـ لدعوة رسول الله ﷺ لهم بذلك[1]، وقد عُجِّلَت لهم في الدُّنيا كرامةُ الأَنوار، وبهجةُ الآثار فـي السِّمات والوجـوه، وذلك حيـن أشرَقَتْ قلوبُهـم بأنوار حديث المصطفى ﷺ ففاضَ على الوجوه أنـوارُ ما غـاضَ فيهـا، نَمَتْ عمَّا وَقَرَ فيها، فتلألأت بالبِـشْرِ الإيماني، والنُّور المحمَّدي، فلَهُم على الأُمَّة فضلٌ لا يُنكر، ومرتبةٌ في الدِّين لا تُجهل.

حفـظ الله ﷻ بهـم طريـق الرِّوايـة واتصال السِّلسلة التـي هـي من خُصوصيات أهلِ الإسلام، دون مَن سبقَهم من غيرهـم من أهل الكتاب.

خصَّهـم الله تعالى بصحَّة الاعتقـاد فـي الأسـماء والـصفات، وغيرها من الإخبارات النَّبوية في المُعتقدات، فلا يوجد فيهم مُبتدِعٌ كاملُ البدعـة، والمتلوِّثُ فيهـم بشيءٍ منها ـ لِشُؤم صُحْبة الأقران ـ بِدعتُه مَغمورةٌ بأضعاف أضعافها من الحقِّ والهُدى، فقهاؤهم أنفـذُ الفقهاء، وأنورُهم، وأحكمُهُم أصولاً، وأبسقُهُم فُرُوعـاً، وأقـربهم إلى الله ﷻ أئمَّة الهدى، وقُدوة الوَرَى، سُيُوفٌ علـى رِقَـاب أهـل

(١) للحديـث المتواتـر فـي ذلـك وهـو قولـه ﷺ: «نضـر الله امـرأً سـمع مقالتي...».

البِدَع والهَوى، نِقمةٌ على أهلِ الكلام والرأي ومَنْ زاغ من الأمَّة وغَوى.

وكيفَ لا، ومنهم: الشَّافعيُّ، إمامُ الأئمة، وقدوةُ أهل المِلَّة، الطَّاهرُ المعتقد، الرادُّ على أهل الكلام والأهواء، نُقِلَ عنه رضي الله عنه أنه قال: حُكمي في أهل الكلام أن يُضرَبوا بالجريد، ويُطافَ بهم، ويُنادَى عليهم: هذا جزاءُ مَنْ ترك كتاب الله، وسنَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم وأقبلَ على الكلام، أو نحو ذلك[1].

ومنهم: أحمدُ بن حَنبل، صِدِّيقُ الله في الزَّمان، وناصرُ صفاته من الخِذْلان، والباذلُ نَفْسَه في مسألة القرآن.

وكذلك مَن تقدَّمهم من الأئمة الكُبَراء كالسُّفيانَين والحمَّادَين[2]، وابن المبارك، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، ويزيد بن هارون، وأقرانهم ونُظرائهم رضي الله عنهم، وكثَّر في الأمة أتْباعهم، والنَّاصرين لطريقهم، وكذلك صُوْفيَّتُهم أقربُ الناس إلى الله عز وجل، وأصحُّهم أساساً، وأقْوَمُهم معاملةً، وأنورُهم بهجةً، وأوفرُهم نَصيباً من الخصوصية والاصطفاء، فهم أحَرُّ النَّاس قُلوباً، وأظمأُ أكباداً،

---

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الإمام الشافعي» (١/ ٤٦٢).

(٢) سفيان بن عُيينة وسفيان بن سعيد الثوري، وحمَّاد بن زيد وحمَّاد بن سلَمة.

وأكمَلُ عِرْفاناً، وأوضحُ شُهوداً، وأتمُّ وجوداً.

وكيف لا؟ ومنهم سيِّدُ الطائفة: أبو القاسم الجُنَيْد بن محمد القواريري، قُدْوة أهل التَّحقيق في زمانه، أقرَّ له الشيوخُ في صِباه بالإمامة.

كما رواه أبو بكر الكتاني قال: اجتمع شيوخُ الحرم في الموسم، وفيهم الجُنيد، وكان أصغرَهم سِنًّا، فتكلَّموا في المحبَّة، ثمَّ قالوا: هاتِ ما عندك يا عراقيُّ؟ فقال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربِّه، قائمٌ بأداء حُقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، قد أَحرَقَ قلبَه أنوارُ هُويَّته، وصَفَا شُرْبه من كأسِ ودِّه، وانكشفَ له الحجابُ عن أستار غَيْبه، فإن نَطَقَ فبالله، أو تكلم فعن الله ـ شكٌّ هنا قوله: فعن الله أو فمن الله ـ، أو سكت فَمَعَ الله، فهو بالله ولله، ومع الله. فَبَكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جَبَرَكَ الله يا تاج العارفين.

ومنهم سيِّدُ الأبدال والصدِّيقين، المجمَعِ على بهائه وأنواره، وقوَّة حاله واتصاله: سهل بن عبدالله التُستري، فتح الله قلبه وعُمرُه اثنتا عشرة سنةً، حتَّى رحل إلى المشايخ بعبادان، فسألهم عن وقائعه ومواهب مولاه في سرِّه.

ومنهم قدوةُ المحبين، وعَلَمُ الوَاجدين، نِظامُ أهل الهِمَم، وعُمْدة أهل الحِكَم، أبو سعيد الخرَّاز الفقيه البغدادي.

قيل للجُنَيد: إن أبا سعيدٍ كان كثير التواجد عند الموت، فقال:

لا تَعجبوا أنْ تكون روحُه قد خرجتِ اشتياقاً.

وكان يُنشِد عند موتِهِ هذه الأبيات:

حنينُ قلوبِ العارفينَ إلى الذِّكر ... وتذكارُهُم عند المناجاةِ للِيُسْرِ
أُديرت كؤوسٌ للمنايا عليهمُ ... فأَغْفَوا عن الدُّنيا كإغفاء ذي السُّكْرِ
قُلوبهم جَوَّالةٌ بمُعسكَرٍ ... به أهلُ ودِّ اللهِ كالأنجُمِ الزُّهرِ
فما عرفوا إلا بِقُربِ مَليكِهِم ... وما مَسَّهُم من بأسِ بُؤسٍ ولا ضُرِّ

ومنهم: الإمام العالم القاضي عمرو بن عثمان المكي، وأبو عباس بن عطاء، وأقرانهم ونُظراؤهم، أصولُهم أصولُ أهل الحديث، عليها أَسَّسوا قواعدَهم، وكان لهم عنايةٌ بالأخبار والآثار وطريقةِ السَّلف، فتراهم في مُصنفاتهم يُوَشِّحُونها بحدَّثنا وأخبرنا.

وكذلك من جاءَ بعدهم، ممن اتَّبع منازلهم، واقتفى آثارَهُم، كشيخ الإسلام، قُدوة أهل الرِّواية والسُّلوك: أبي إسماعيل عبدالله الأنصاري الهرَوِي صاحب «المنازل»، والشيخ محيي الدِّين عبد القادر الجيلي - رضي الله عنهم وأرضاهم - فليسَ فقهاءُ أهل الحديثِ وصوفيَّتِهم كفقهاء الكلام وصُوفيَّتِهم، فالأوَّلون عليهم ضَوءُ الإسلام، وبَهْجتُه، وإشْراقتُه، قلوبُهم مستسلمةٌ مُنقادةٌ إلى إخبارات الشارع، بِجَعْلِها حاكمةً على عُقولهم، راحةُ قلوبهم في الأخبار

والآثار، فبها يتروَّحون، وفي أَوْديتها يسرَحون، ولأئمَّة أهل الحديث يُعَظِّمـون، وعلى عقائدهـم يتجسسون، والآخـرون عليهـم بشاعـةُ التَّحريفِ، وكَمُودَةُ التَّعطيل.

قلوبهم مَنْكُوسةٌ إلى جهـة النفس ومعقولاتها، فهي راسبةٌ إلى دَركاتِ الرأي والهوى.

يتأمَّلون آراء النُّفوس، فما وافقتْهُ نفوسُهم من المنقول قبِلوه، وما ردَّته حرَّفوه وأوَّلوه، على مقالات أهل الزَّيغ ينحطُّـون، وعلـى عقائدهم يتجسَّسون، وعن مقالات أهل النَّقل والأثر يُعرِضون، فهم عَبيدُ النُّفوسِ، فهي الحاكمة عليهم، والأوَّلون عَبيدُالله، يَسْتسلمون لأخبارِه، فيصدقونها ويقرُّون بالعجز عن دَرْك الإحاطة بها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لما رسَخَـتْ على السُّنة أُصُولُهم، بَسَقت فـي الحقائـق والعُلا شواهدُهم ومَشاهدُهم، وقَرُبت من قُرب الرفيـق الأعلى مقاعِدُهـم ومواطنُهم: توطَّنوا حضرة القُرب بأعمالٍ زكيَّةٍ، وعقائدَ مَرضيةٍ، وقلوب عاكفةٍ، وأرواح مُتصلةٍ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

أوصيـك أيهـا الأخ أيَّـدك الله بتأييـده، وأجـزَلَ لك من فَضْله ومَزيـده، أن تتمسَّك من التَّقوى بأعلى سببٍ في إتقان أوامر ربك، وإتقان اجتناب مناهيـه، فتُنَقِّيهـا حَقَّ الإنقاء، خصوصاً في الصغائر التـي يَستهيـن بمثلها العُموم، في مثـل: نَظـرةٍ، وكلمـةٍ، وهَفْـوةٍ،

فبَادِرْهـا بالاستغفار عند وقُوعهـا تَمْحُهـا بهـا ـ إن شـاء الله تعالى ـ وعليـكَ بمراقبـة عِلْم الله ونظـرِه إليـك في الحركـات والسَّكنـات، واللَّفظات واللَّحظات، والزم ذلك مُتقناً لـه عاملاً على توفيتـه حقَّ الوفاء، لا تـزالُ على ذلك مُواظباً ليلاً ونهاراً، صَباحاً ومساء، كلما غفلتَ عُدتَ إلى مركزك، وأنت في علومك ووظائفها، لا تغيِّر منها شيئاً، والزم هذا الباب الواحد، فإنِّي أرجو لك بـه فَتْحَ مغالق جميع الأبواب، وعلامـة إتقانك هذا الباب، وصولُ تقوى مولاك عَزَّوَجَلَّ إلى قلبكَ في الخَطَرات، فمتى دخلتَ هذا الميدان فاسجد لله عَزَّوَجَلَّ شكراً، فقد وصلتَ إلى قلبـك، وأوشكَ ذلك بك الوصول إلى ربـك ـ عزَّ وجل إن شاء الله تعالى ـ.

هـذا المقـدار مـن السُّـلوك ممَّـا لا يَسَـعُ تَركُـه لعاقـلٍ حازمٍ، ولا يُطالَب العبدُ بما وَرَاء ذلك، فإنَّه مَوهبـةٌ مـن قِسمة الواهـب، يختصُّ به مَن يشاءُ من عباده، يُبادئ به الله من يَصطفيه ويَـصطنعُه، ويتَّخذُه وليًّا من أوليائه، فيتعيَّن ذِكرُ ما وراءَ ذلك، والتَّشويقُ إليـه، ومعرفةُ آدابه، وجمَلِه وتفصيلِه، وبالله التوفيق.

* * *

فَصْـلٌ

فـإنْ رَقيـتَ أيُّهـا الأخُ من ميـدان المحاسبة والتَّقوى، ورعاية

الخواطرِ والجوارح، وإتقان الفرائض، والتَّباعد عن دقائق المناهي، إلى ميدان الإرادة وبَوادئ الجذبة، وكمالِ الاهتمام بالله ﷻ والشُّغل به، وعلامةُ ذلك أن تجِدَ قَبْضاً يقبضُ قلبك عن جميع المرادات والمَلذوذات وما تنجذب إلى مثله النُّفوس، فلا تَفرحُ بشيءٍ، وتَلْحقُكَ كآبةُ فَقْدك لمن تحبُّه، فيَلْتبس قَلْبَك حرقٌ إذا فرح الناس، خُصوصاً في أعيادهم، وتجد قلبكَ فاقداً حزيناً، كأنَّ له شيئاً غائباً له ينتظره، أو محبوباً يؤمِّل قُربَه من وراءِ حِجابٍ، وربما حَبَّبَ إليك ذلك الخَلْوة، وألزمك الكَمَد، فلا تَعْجِزْ في شؤونك ومصالح دنياك، فَقُمْ بها مُستعيناً بربِّك، ومتى فتحَ ذلك عليك هذا الباب، فلا تلتفتْ إلى ما يفوتُ من السَّمات العالية، وعُلوِّ الإسنادِ، فربما غَلِطَ في ذلك غالطٌ، وتلَت عليه النفس في هذا الموطن فضائلَ العلوم، فيكون مثلُه كمثل مَن حَجَّ وبقي بينه وبين عرفَةَ مرحلةُ يوم التَّروية، فحدَّثته نفسه بفضيلة صلاة النافلة، وما جاء فيها من الفضائل، فاشتغل بها، ففاتَه الحجُّ الأكبر، والمقصودُ الأعظم، حين شارف أوانه وموسمه، نعَم له فضيلةُ تلك النافلة، لكنها إذا قُوبلت بما فات، كانت كالزَّلات.

واعلم أن الله ﷻ إذا فتح على مُريدٍ هذا الباب، فقد فتحَ له باب قُرْبه، دعاه إلى حبِّه وذكره في الملأ الأعلى بوصله، فهو يحسِبُ ذلك القَبْض من جهته، وإنما هو لأمرٍ خفيٍّ بدا على القلب من وراء

حُجُبِ الغَيب، فأورثه هذا القبض، ومتى اجتمع العبد بِكُلِّه على ربِّه، ولَهَا به عن كلِّ درجة عاليةٍ يتوقَّع جَدواها في الدُّنيا وفي الآخرة، اللهمَّ إلا ما وجب شرعاً، أو تأكَّد النَّدبُ إليه، فذلك لا محيص عنه، فإنَّه يُرجى لمثل هذا كمالُ الاختصاص والتَّولي، فلا يدعُه مولاه مع غيره، ويتولاه في سَيره إليه، حَتَّى يمكِّنَ له في القُرب من حضرته بين يديه، فإذا شارف مراتب أهل التَّمكين، وقطع مسافات الطبع بالسَّير المتين، المَسُوس بسياسة الشَّرع والعقل الرَّصين، وكمَّل سياسة الجسم الظَّاهر بكمال التقوى والمحاسبة، وكمَّلَ سير القلوب بكمال الحضور والمراقبة، وحقَّق مشاهدة الصفات القلبية، فاضمحلَّت نفسُه، وذابت وجَمدت على قلبه، ثُمَّ اضمحلَّ قلبُه على روحه، وبدت له مشاهدُ الأرواح بطيرانها إلى فضاء القُرب، وبُدُوِّ المحبة الخاصَّة الملهِبَة للأرواح بنيران الوَجْد والاحتراق، فحينئذٍ تتلاطم على الوجود الذاهب الفاني أمواجُ التوحيد، وزفراتُ الحبِّ العتيد، فتصير الرُّوح بحراً موَّاجاً من نسمات القُرب، ويقال حينئذ[1]:

بَدا لكَ سِرٌّ طالَ عنك اكتتامُه ... ولاحَ صباحٌ كنتَ أنت ظلامُهُ

وأنتَ حِجابُ القلب عن سرِّ غَيبِه ... ولولاك لم يُطبَع عليه ختامُهُ

---

(١) قريب منه كلام ابن القيم وكذا استشهاده ببيتي الشعر في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٤).

فتَهِيْم في قرب مولاك ما شاء الله أن تهيمَ، فإن كان الله ﷻ قد قضى بأن ينفعَ الناسَ بك، ردَّكَ من وجودك الذاهب الفاني، إلى وجودٍ مُطَهَّرٍ باقٍ بإبقاء الله ﷻ فتُسخَّرُ لك العلوم تسخيراً، وتعود عليك بزياداتٍ أخرَ فضلاً عن أن يفوت منها شيءٌ جليلاً كان أو حقيراً، فيُصَفِّي لك مواردَها ومشاربها، وتُجْمَع عليك شواردُها، فالله الله إذا فتح الله ﷻ قلبك بالإرادة، ووجدتَ ذَوقها، واشتَعَلت فيك نيرانها، فالوصيةَ الوصيَّةَ أن تجعل الهمَّ همًّا واحداً، كِلْهُ إلى المطلوب بالقصد الأوَّل، تجعل ما أقمت فيه من الرِّواية والحِفْظ مطلوباً بالقصد الثاني، تنتقل به كما ينتقل الآكل لما يكفيه بالمكسرات، بعد أخذه ما يكتفي به من الطعام.

* * *

فَصْلٌ

إذا أراد الله بعبدٍ خيراً حماهُ عن قُرناء السُّوء، وقُطَّاع الطَّريق الذين يُذكِّرونه الأشياء التي تَعيَّن نسيانُها، تتطرَّى بصحبتهم الطبيعة، وتنحلُّ العقودُ والعزائم التي عقدَها العبد في الخَلْوَة، وتبرُد بهم الهِمَم الحارَّة، فهم الصادُّون عن سبيل الله حقيقةً، وإن كانوا أهلَ علمٍ، وصلاةٍ، ونوافل، لكنهم عبيدُ الدُّنيا والنُّفوس، لم يهجموا على علم الخاصَّة أهلِ عبوديَّة الملك القدُّوس، فإياكَ إياكَ أيها المُريد وإياهم،

احذرهم على قلبك أن يُميتوه، وعلى جُندِ عَزْمك أن يهزِموه، يَجـذبون الصاعِدَ إلى الدَّرجاتِ فيردُّونه إلى الدَّرَكاتِ.

واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيـراً، جعلـه إلـى العـشرين مُتعلِّماً، وإلى الثلاثين مُنيباً، ثُمَّ إلى الأربعين والِهاً مُريداً طالباً، ثُمَّ إلى الخمسين حَليماً عارفاً، ثُمَّ إلى السِّتين واصلاً واحداً ذاهباً فانياً، ثمَّ إلى السبعين بَدَلاً مُقرَّبـاً، ولا يلزم هذا الترتيب في كل فرد فرد، لكنَّ الترتيب العلمي اقتضى ذلك، وقـد يـسبق بعـضُها بعـضاً فـي أشخاص على حسب استعدادهم وما قُسِمَ لهم، ومن أراد به الله ﷻ خيراً جعله بوَّاب قلبه، بعد صحَّة إرادته، فيَا لها من طَريقةٍ ما أَصَـحَّها، وعلامةٍ ما أنجحَ غايتها إن شاء الله.

والموفَّـق مَن حفظَ في كلِّ طَورٍ مقامَـه، وأتمَّه وأكملَه وأتقنه، وحرَّر فيـه أصولـه وفروعـه، وعلومـه وأعمالـه، وأحوالـه وبداياته ونهاياتِـهِ، فبذلـك يبلـغُ العبـدُ منـازل السَّابقيـن، ويحِـلُّ في دائـرة المقرَّبين.

* * *

فَصْــلٌ

قُـدْ نفسـك أيهـا المُريد إلى الله ﷻ قَوْداً رفيقاً بعد إكمالِ تقواه في الحركـاتِ والسِّعايـات، والخواطـر والعَزمـات، وأشْغِل نفسك

بطلب الإرادة، ولو ساعةً من نهار، ثُمَّ عُد إلى وظائفك وتفاريقك، فلا تبـرح كذلك حتَّى تأخُـذَ الإرادةُ بمجامعِ قلبك، وتَسري محبَّته في مجـاري الدَّمِ منـك، وتسكُنَ خشيتُـه ومراقبتُـه فـي محلِّ دَبيبِ الخواطـر من سُويداء قلبـك، فطُوباكَ ثُمَّ طوباك إن وصلتَ إلى هذا الموطـن، فاجمعْ همَّـكَ كلَّه عساك تنالُ هـذه الدَّرجة، وتدخلُ في دائرة أهل هذه الحضرة، وتُشاركهم في أذواقهم وعلومهم ومعارفهم، ولا تتوهم أنَّها الغاية، واعلم أنها بداية أهل الخصوص، كما أنَّ التوبة بداية أهل العموم.

يا طوباك إن بِتَّ بمولاك مهموماً، وأصبحت بمراقبته مشغولاً، وكنت إلى لقائه مُشتاقاً، وعن الدُّنيا عازفاً، وتوحَّدَتْ وِجهةُ قلبك إلى قبلة واحدة، وذاقَ القلب من تلك القِبلة العُلويَّـة ذَوقـاً سليماً عنها، فيستعدُّ العبد بهذا الإعمال والأحوال لمشاهدات المُحبين، والجوَلان في ميادين الواصلين، في مُكاشـفات الجـلال والجمـال، والكـرم والاتصـال، والصِّفات المقدَّسـة ذات الشَّـرف والكمال فـي الآبـاد والآزال.

فهناك يذوقُ العبدُ فَهْمَ القرآن، كأنه يسمعه من حبيبه الأعظم، ويذوق قسطاً من معرفـة فضل الرسول ﷺ من المعارف التي عرَّفتـه بها الخاصَّةُ على تقدير مقاماتهم، وعلوِّ درجاتهم.

فالمؤمنون يعرفونه على قدر إيمانهم، إذْ بإيمانهم عرَفوه، ويَفْضُلُهم الموقنون في معرفتهم له بفضل يقينهم، ويفضلُهم المحبُّون في المعرفة بالرسول ﷺ بفضل محبتهم، ويفضُلُهم المقرَّبون في ذلك بفضل قُرْبهم إذ ما من أهلِ مقامٍ إلا وقد سبقهم إليه الرسول ﷺ، وتوطَّن في أعلى منازله من الإيمان واليقين والمحبة والقُرب وغير ذلك، فيشهدُه أهلُ كلِّ مقامٍ من مقامهم بحسب نصيبهم منه، ولا يحيطون به علماً.

فللأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ من هذه المقامات أبحُرٌ زاخرةٌ اتسَعوا لها؛ لسعةِ استعداد مراتب النُّبوة، وللأفراد من أُممهم من ذلك مشاربُ رائقةٌ، كالجرعة والجُرعتين، والشرب التَّام، والرِّيِّ والسُّكر فيه والصَّحْو، فلهم من ذلك البحرُ الزَّاخر شربةً تملأ جوانحهم، وتَسري في مَفاصلهم من ميراث النُّبوة ورضاعها.

فهؤلاءِ الوارثون الذين ورِثوا قِسْطاً من حال الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ، فهم ورثة علم الباطن[1] كما وَرِث العلماء قِسْطاً من علمه الظاهر، والعلماءُ وَرَثة الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) لقد بقيت في المصنف من غير قصد آثار ما كان عليه من تصوف في سياقه لبعض ألفاظهم وكلماتهم، التي هي بعيدة من أشعة ونور السُّنة وألفاظها، التي لا باطن فيها ولا ظاهر.

ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، فوصفَ العلماءَ بالخشية، وهم أهلُ ميراث الحال النَّبوي الباطن، فانهض أيُّها الأخ مُستعيناً بربِّك إلى ربك مرحلةً، تُرزق من معرفة الرسول ﷺ على قدر ما رُزقت في مرحلتك من العلم بالله ﷻ والخشية له، والمحبَّة لجلاله وإكرامه.

* * *

فَصْلٌ

إيَّاك ثُمَّ إيَّاك أن تطرحَ هذا الأمر، وتُقِلَّ الاكتراث به حيث زهدَ فيه إخوانك المُحدِّثون، ارغب في الأمر على قَدْرِ فضله، لا على قدر اشتغالِ أهل العصر به، واعلم أنه بِساطٌ قد طُوِيَ، ورَسْمٌ قد امْتُحيَ إلا غبرةً يسيرةً منه تغبَّر بها آحادُ أفراد، والسُّنيُّ فيهم مُثبتُ الصفاتِ نادرٌ قد لا يوجد، وغالبهم لا يوجد، إلا مع شائبةِ اتحاد أو شائبة وقوفٍ، لو تراه سُنيًّا عالماً مُبتدِئًا من نصفِ الطريق.

واعلم أنَّ هذا من أهمِّ الأشياء المطلوبة في الدَّعوة المحمَّدية، فعليك بإحياءِ هذه السُّنة، فمن أحيا سنَّةً قد أُميتت بعد النبي ﷺ فكأنما أحياه، ومن أحياه كان معه في الجنة(١)، فكيف إذا كانت تلك السُّنَّة

---

(١) أخرج ابن شاهين في «الترغيب» (٥٢٧) بسند ضعيف مرفوعاً: «من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنَّة» وإسناده ضعيف؛ فيه عاصم بن سعيد ضعيف، وخالد بن أنس لا يعرف حاله.

التي قد أُميتت هي من وظائف القلوب والأرواح، ونَصيبُها من الحَظْوَة بقرب الكريم الفتَّاح؟ فلإحياء هذه السُّنَّة نسبةٌ من إحياء الأرواح، كما أنَّ لإحياء السُّنن نسبةً من إحياء الأجساد، والكلُّ مُتلازمٌ، فقومٌ يُحيون السُّنن الظاهرة، وقوم يُحيون السُّنن الباطنة، فانهض إلى هذا الأمر نهضةَ كيِّسٍ قد عَرف مَوقعه من الدِّين، ومحلَّه الرفيعَ ممَّن يطلبُ به وهو أرحم الراحمين.

وردت الأخبارُ بفضيلة الذَّاكرين، والمسبِّحين، والمهلِّلين، والمصلِّين، والمتصدِّقين، والصَّائمين، ومَن يُنحِّي شَوْكةً أو عظماً عن الطريق، وغُفِر لِمُومِسةٍ سقَت كلباً عطِشاً بمُوقِها[1].

فما ظنُّك بفضيلة المُستهدِين، الذين وَضَعَ عنهم الذِّكْرُ الخاصُّ أثقالَهم، فوردوا القيامة خِفافاً؟ أم ما ظنك بفضل المُريدين الذين اجتمعت هُمومهم وإرادتهم على مولاهم محبةً له وتفريداً؟ وقد ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، هذا في التوحيد العامِّ له هذا المدح بكونه سالماً لله في العبادة من أن يُشركَ به معه في العبادة غيرَه، فله هذا الفضل والمِدْحَة من العزيز العلاَّم، فما ظنُّك بمَن شَرَّدَ

---

(١) ساق الإمام النووي الأحاديث هذه الصحيحة في: «رياض الصالحين» (ص٧٢) تحت باب بيان كثرة طُرُقِ الخير، وشرح قوله: «موقها» أنه الخُفُّ.

عن قلبه أصناف التَّفاريـق والشُّركاء الذين يتوزَّعون قلبه فيقتسمونه، ويتجاذبـون هِمَّتَـه فيوزِّعونها؟ وصارَ رجلاً سالماً لمحبوبٍ واحدٍ، ومُرادٍ واحدٍ، بهمٍّ واحدٍ، لا يريد المُريد سواه، ولا يتولَّى إلا إيَّاه، ولا يتوكَّل على غيره، ولا يبيت إلا وهو مُضاجعٌ قلَقَ محبَّته، والشوقَ إليه، سالٍ عن كلِّ فائتٍ يفوقُ سواه، حَذِراً خائفاً من فواته، عالم بأنَّ كـلَّ شيءٍ له عِوَضٌ، وقربَ الله ﷻ ومحبَّتَه لعبده ورضاه عنه وتولِّيه وأخذَه في كنفِه وقَبْضته، لا عِوضَ عنه، وقيل:

كيفَ السُّلُوُّ وما لي عَنْكُمُ عِـوَضُ ... وكلُّ شيءٍ سِوى حُبِّي لكم عَرَضُ

تَفنى اللَّيالي وناري غيرُ خامدةٍ ... ووُدُّكم حَشْوُ قلبي ليس ينقَرِضُ

ونسـأل الله ـ الكريـم ـ أن يهدينـا سُبلَ السَّلام، ويُخرجنـا من الظلمات إلى النُّور بإذنـه، ويهدينـا إلى صراط العزيز الحميد، وأن يُرينا الحقَّ حقًّا، والفاضـلَ فاضـلاً، والمفضـولَ مفضولاً، والمهمَّ مهمًّا، والفاني فانياً، والباقي باقياً، ويأخذَ بأعنَّة قلوبنا إلى ما يقرِّب منـه زُلفـى، ولا يجعلنـا من أهـلِ الفَوْت والحرمـان، الذين ماتـوا بمـوتِ أجسادهـم، وأن يجعلنـا ممَّـن حَيـي بالله ﷻ حيـاةً أبديَّـةً، فصار باقياً به، حيًّا وميتاً، وأن يتداركنـا بألطافـه الخفيَّـة، إنه سميعٌ مجيـبٌ، والحمد لله وحـده، وصلـى الله علـى سيِّدنا محمَّد وآلـه وسلم.

تمَّ كلامُ سيِّدنا وشيخنا عماد الدِّين، أعاد الله علينا من بركته، آمين(١).

❒❒❒

(١) تمَّت مقابلته بأصل مصوَّرة مخطوطتِهِ مع أخي الشيخ نور الدِّين طالب، في الحادي عشر من شهر شوال سنة (١٤٣٩هـ)، في خان آل حِتّة، المعروف بخان الصخرة، محط الرواحل المتنقلة من جنوب لبنان إلى شماله، في ضيعة شملان، قضاء عالية من جبال لبنان.
ثُمَّ تم النظر النهائي فيه، وتحضيره للطبع في ١٢ شوال سنة (١٤٣٩هـ)، في ثغر بيروت المحروسة.

فقيرُ عفوِ ربِّه

